الفصل السابع

فى السبب فى غلبة الفلاكة والإهمال والإملاق على نوع الإنسان وبيان ذلك

اعلم أن المفلوكية والإهمال والإملاق غـالب على جنس البشر والسبب فى أن غالب البشر[1] يرمقون العيش ترميقًا ويدافعون إخفاق المساعى مدافعة ويتسكعون فى طرق الإمـلاق أو فوقه بقليل تسكعًا أن السيـادة والمجد والثروة والغنى وأشباهها إما مكتـسبة وإما موروثة فأما المكتسبـة فما سوى الإمارة من المعاش الطبيعى إما تجارة أو فلاحة أو صناعة فالتـجارة مفتقرة إلى مادة متسعة ورأس مال كـبير يدار فى وجـوه الأرباح والتثمـير ويوزع على أنواع المتـاجر لينجبر كساد بعـضها بنفاق الآخر وليستعـان بالنافق على ادخار الكاسد ارتقابًا لحوالة الأسواق واسـتدرارًا للنفق ولكيلا يباع الكاسد فى حـال كساده وذهاب ربحه وفساده وأيدى الناس خالية عن الأمـوال المقنعة القابلة لمثل ذلك غالبًا - وأيضًا فهى محتاجة إلى بصيـرة تامة ودراية وافية وتجربة كاملة ليؤمن بها غش الباعة وخلابتهم وترويج السماسرة كواسـدهم ومفتقرة أيضًا إلى فراسة صادقة وحدس صـحيح ليضع كل سلـعة فى حاق مـوضعهـا زبونًا وسومًا وترخـيًا وإغلاء وحلولا وتأجيلا وادخارًا وتعجيـلا ونفوس الناس غالبًا ظلمانية لحلوها عن العلوم العـقلية والأعـمال الرياضيـة فهى بعـيدة عن البـصيـرة - وأيضًا فالأيدى الغاصبة الخـاطفة مستولية على التجار لمقهـوريتهم مع الدولة وحامية الملك وخاصته المخادعين بالاستدانة والأرباح الكاذبة والمواعيد الباطلة والرهون غير المملـوكة والالتجاء إلى الإعـسارات والحيل الشرعـية والاستعانـة بشهود

---

(١) فى القاموس الترميق العمل يعمله ولا يحسنه يتـبلغ به وهو مرمق العيش ومرمقه كمعظم ومحمر ضيقه اهـ وقوله ويتسكعون أى يذهبون متحيرين لا يدرون أين يأخذون اهـ.

الزور ووكلاء السوء وربما تكرر ذلك على التاجر الماهر فعاقه وأقعده عن أمثاله حتى أتى على رأس ماله - وأما الفلاحة فعوارضها السماوية أكثر من أن تعد من البرد والهواء المفرطين وانقطاع المطر وكثرته فى غير وقته ونزول كبار الحصى والبرد وثقيل الثلج وشدة الحر ومجيء الجراد المنتشر وكذلك العوارض الأرضية من سوء النبت وسباخة الأرض وخبث طينها ووضع الأشياء متأخرة عن أوانها وعدم استكمالها بحرائها وشروطها ونبات الأشياء المضرة خلال الأشياء المطلوبة ومن الجرذ والفار واليربوع ومن رخص البقول والخضروات وما فى معناها مما لا يقبل الادخار مع غلاء بذرها ومن عدم نصيحة المعاونين فيها وخبائتهم واختلاسهم وتفويت الأعمال الكمالية المصلحية وتسليط الظلمة عليهم واستعبادهم وتوسيع شروط مقاسمتهم وفرض الفرائض والتفنن فى وجوه الجبايات وأنواع الظلمات وإلجائهم إلى بيع زراعاتهم فى حال كسادها وعدم رواجها مع ما يختص به أهل البدو من رداءة العيش وخشونته والبعد عن أحوال الحضارة من الرفاهية والترف وموجودية المطالب والتحلى بالعلوم ثم مع ذلك كله ما هم عليه من دخول المهانة فى قلوبهم وظهورها فى أحوالهم وعلى شمائلهم ونهيك قوله ﷺ: «ما دخلت السكة دار قوم إلا دخلها الذل» - وأما الصناعات فلقلة الماهر الحاذق فيها وعلى الجملة فالصنائع شاغلة لأصحابها عن الدعة والراحة والرفاهية ويطرقها الكساد كثيرا ونفاقها لا جدوى له ولا يحظى صاحبه بطائل وأصحاب الصنائع باذلون رقهم وعبوديتهم بأقل قليل للفقير والغنى والمسلم والذمى فهم بمراحل عن الشهامة وعلو الهمة والأنفة - ثم جهات المعاش الثلاثة مفتقرة إلى التعاون والتناصح وقد انقطعا من كافة البشر أو عامتهم لاتساع موجبات التباغض والتماقت لكثرة مقتضيات التحاسد ولحيلولة كل واحد الآخر عن مراده الناشئة من الكبر والعجب والعداوة وخوف الازدحام على مطلوب واحد. ولفوات بعض

المقاصد بكثرة الشركاء وحب المباهاة والانفراد بالمجد وخبث النفس وفساد جوهرها ونقس إنسانيتها - وأيضًا يقال على وجوه المعاش الثلاث أنه كلما تجدد للإنسان دخل جدد له صرفًا إما للمباهاة والترفع على أمثاله أو إفراطًا فى الشهوات وأنهما كافى اللذات أو خوفًا من سوء القالة والأحدوثة بتنقيص ما يقتضيه حاله أو بإكراه مبغض لتلك النعمة عليه أو لأن الحالات المتجددة فى دخله يلزمها تجدد أمور فى صرفه فلا يزال الشخص مفلوكا مهملا غير قادر على المكارم - وأيضًا فوجوه المجد والسيادة الكسبية لا تصير دفعة وإنما تكون بالتدريج والترقى ومكابدة تنميتها ومعالجة زوال موانعها مع كثرة الصادين عنها والعوارض العائقة لها أمر عسير بطىء السير فيقضى الإنسان شطر عمره أو معظمه فى فلاكة وإدبار - هذا حكم وجوه المعاش الطبيعى وأما غير الطبيعى كالاسترزاق بالكيمياء والتنجيم والدلالة وقلم الشهادة لغير المعروف وسائر الأرزاق الهوائية الخطفية الصدفية فهى أرسخ قدمًا فى الفلاكة والإدبار لأنها بمنزلة اللقطة والعصور على دفائن الأرض لعدم انتظماها ووفاء محصولها لخمولها فأصحابه لا سيما غير المشهور منهم أئمة الفلاكة وهيولاها وينابيعها ومأواها أعاذنا الله من ذلك ومن الاختلاط بأهله آمين - وأما الإمارة فلا ينكر أن مبادئها مشتملة على نصيب وافر من الفلاكة والإدبار وبيانه أن الإمرة لا تتم إلا بالعصبية والتغلب والشوكة وفى قمع المعاند والجاحد وتأليف القلوب المتفرقة وتمهيد المسالك والقيام بحقوق لا تحصى كثرة معاناة شدائد ومكابدة مكائد ومشاق وتعريض النفس للهلاك وكبراء الجند مستعبدون مع مليكهم مشغولون به عن أنفسهم مقدمون لمراده على مرادهم ولو سلم أن السلطنة خالية من الفلاكة فهى من القسم الندار والدعوى أن الفلاكة غالبة على نوع الإنسان لا إنها لازمة لكل نوع الإنسان - هذا كله من المكتسب أما الموروث فيطرقه أنواع من الفلاكة منها امتداد أيدى الولاة والحكام إليه - ومنها ذلة

اليتيم وخـضوعه وفقـده نصيحة أبيه - ومنهـا سهولة صرف مالـه عليه لعدم تحمله مشـاق جمعه وتجشـمه نصب الحبائل فى تحـصيله فيسرع فـيه بالسرف والتبذير والسـفه لعدم حنكته وبصره بعـواقب الأمور ويعود يتكفف الناس - ومنها عجزه لعدم مهارته ودربته عن الوفاء بمقـاصد ماله والقيام بشروط تنميته وتثميره فيذوب قليلا قليلا إلى أن يضمحل ويتلاشى ولا يحصل منه إلا على الملامة والتعبير والندم - ومنها إنكار المنكرين كونه فى رتبة مورثه ومستحقًا لما كا يعاون بـه مورثه ويساعد عليـه فلا يؤمنون على دعائه ولا يساعـفونه على قصده ولا يـسيرون معه سـيرة مورثه فيـقع من ذلك فى العناء العظيم والداء العقـيم وبهذا التقـرير يعلم أن الفلاكـة غالبة على نوع الإنسـان وارثًا كان أو كاسبًا والله أعلم.